

البَابُ الأولُ

الزوج .. والبيت

مُحَمَّدٌ

الزوج النَّبِيُّ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٣٦﴾

صدق الله العظيم

(سورة الإسراء)

الْبَيْتُ وَالزَّوْجُ

الحديث عن «نساء النبي» ﷺ في بيته، لا بد أن يسبقه حديث عن الزوج، وبيته الذي أظلهن، لا أعنى به بنيانه وموضعه، بقدر ما أعنى الحياة المشتركة فيه. وأما البيت بمعنى البنيان؛ فالواقع أنه لم يكن بيتا واحدا، بل بيتين: أولهما في «مكة» حيث عاش «محمد» ﷺ، مع زوجه الأولى وحدها، وحيث أنجب، وواجه التحول الأعظم في حياته وفي حياة العرب والإنسانية جميعا. وقد وصفتُ هذا البيت في كتابي عن «بنات النبي» ﷺ^(١) وأما البيت الآخر فكان في «المدينة» حيث عاشت أمهات المؤمنين جميعا غير السيدة خديجة رضى الله عنهن، فيجد القراء وصفه موجزا في الفصل الخاص بالسيدة عائشة رضى الله عنها من هذا الكتاب، إذ كانت أولاهن مكانا فيه، ومن بعدها جاءت نساء النبي ﷺ تباعا، وصار لزواجه ﷺ معنى اجتماعي وسياسي وتشريعي لم يُلحظ في البيت الأول الذي دخله محمد ﷺ شابا في الخامسة والعشرين من عمره، لم يُبعث بعدُ برسالة، ولم يتلق الوحى.



وفي الحديث عن رب هذا البيت الذي أظلهن، لا أقدم هنا تبعا للسيرة النبوية أو عرضا لأبجادهما الخالدة ومواقفها المشهودة، وإنما أقف

(١) ظهرت منه عدة طبعات لدار الهلال بالقاهرة. ثم دار الكتاب العربي في بيروت. ويأخذ موضعه في المجلد الجامع لـ (تراجم سيدات بيت النبوة) رضى الله عنهن.

من هذا كله عند جانب بعينه لا ينبغي أن أتجاوزَه إلى سواه، ذلك هو محمد ﷺ الزوج، النبي الإنسان الذي أظل بيته هؤلاء السيدات الكريمات، ووسعتهن دنياه الخاصة، وكان لهن حظ المشاركة في حياته الوجدانية ثم في حياته العملية.

والفصل بين شخصيته زوجا رجلا، وشخصيته ﷺ نبيا رسولا، جُدٌ عسير، وليس الأمر كذلك في حياة نبي آخر من حملة الرسالات رغم كونهم جميعاً آدميين، يقول الله تعالى فيهم: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم﴾^(١)، ذلك لأن الإسلام قرر بشرية الرسل عليهم السلام أصلاً من أصول عقيدته. ومحمد ﷺ كان أحرص الناس على تذكير أمته بأنه بشر: عبدالله ورسوله.

ولم تنزع الرسالة من قلبه عواطف البشر، ولا جردته من وجدانهم، ولا عصمته مما يجوز عليهم فيها عدا ما يتصل بالنبوة؛ فهو كما قال جل جلاله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾^(٢) : يسكن إلى زوجته، ويشغل بالأبناء ويعانى مثل الذى يعانى بنو آدم من حب وكره، ورغبة وزهد، وخوف وأمل، وحنين واشتياق، ويمجرى عليه ما جرى على سائر البشر من تعب ويتم وثكل، ومرض وموت:

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَكُنْ
مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبَتْ عَلَى آَعْقِبِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ
يُصَرَّ اللَّهُ شَيْئًا^(٣).

(١) من آيات: يوسف ١٠٩، والنحل ٤٣، والأنبياء ٧.

(٢) سورة الكهف ١١٠ وفصلت آية ٦.

(٣) من آية ١٤٤ سورة آل عمران.

ولو شاء الله لعصم نبيه من كل هذا، ولأعفاه مما ذاق من حرّ الشكّل في بنيه، وفداحة المصاب في خديجة، ومحنة الإفك في عائشة، ولجعل حياته نصراً متصلاً لا يعرف هزيمة ولا يشفق من خيبة، وأراحه من اضطهاد أعدائه وكيد المنافقين من أتباعه، ولكن سبقت كلمة الله لرسوله:

قُلْ لَا أَمْلِكُ
لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ
لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ
وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١)

وإنه لغاية التكريم للبشرية، أن ينتمى إليها النبي الرسول، ومن قبل كرمها الله تعالى فأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، أبي البشر.

* * *

ولكن محمداً ﷺ، لم يكن مع ذلك كأحد من البشر، وقد اصطفاه الله من بين المخلوقين جميعاً، خاتماً للنبيين، وبعثه في الناس بشيراً ونذيراً.. إنه بشر رسول، وهذا هو موضع الدقة والعسر في الحديث عن «الرجل» في حياته العاطفية والزوجية، فما يغيب عن كاتب يعرض لهذا الجانب من شخصية محمد، أنه قد كان النبي المصطفى، وأن كلمة الإسلام الأولى هي الشهادة بأن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

ويزيد في دقة الأمر وعسره، أن نرى الشخصيتين مندمجتين فيه غير

منفصلتين، وأن الله سبحانه وتعالى لم يدع لرسوله حياته الخاصة يتصرف فيها كيف شاء على نحو ما يفعل أى رجل من البشر، وإنما كان - ﷺ - يتلقى من حين إلى حين أوامر ربه فى أخص الشئون الزوجية، وكانت علاقاته بنسائه تخضع أحيانا لتوجيه سهاوى صريح:

فمحنة الإفك مثلا، لم يحسمها إلا نزول الوحي ببراءة السيدة «عائشة» رضى الله عنها مما افتراه عليها الذين أرجفوا بالسوء ورموها بالفاحشة.

وزواجه ﷺ من السيدة «زینب بنت جحش» ما كان ليتم لولا أن نزل به عتاب صريح من الله الذى كره لمحمد أن يخفى فى نفسه ما الله مبيده، وأن يخشى الناس والله أحق أن يخشاه.

وطلاق الرسول ﷺ لزوجته السيدة حفصة، خيف من وطأته على أبيها «عمر» رضى الله عنه، فنزل أمين الوحي على النبى ﷺ بأمر الله أن يراجع حفصة، رحمةً بعمر.

وضيق نساء النبى ﷺ، بما فرض عليهن من حياة خشنة، نزل فيه قوله تعالى فى سورة الأحزاب:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ١٨ وَإِن
كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْحَيِّسَاتِ
مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ١٩

وسلوك نسائه، ﷺ، كان يخضع لتبعات القدوة ومسئوليتها الباهظة الصعبة، قال تعالى في سورة الأحزاب:

يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ لَسْتَ بِكَ
كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ اِنْ اَتَقَبَضْتُ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝۱۷ وَرَن
فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقْنِ
الضُّكُوءَ وَأَنِبْنَ الرِّكَوَّةَ وَأَطِيعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ۝۱۸ وَأَذْكُرَنَّ مَا بُنِيَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ
وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝۱۹

وبعض هذا يكفي لبيان صعوبة الفصل بين شخصية الزوج وشخصية النبي ﷺ.

فأى رجل كان نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام؟

وأى زوج جمع بيته هذا العدد من عقائل كريمات، اختلفت أغاطهن، وتباعدت أصولهن ومنابتهن، وتفاوتت أعمارهن وصورهن؟..

قد نستطيع - بشيء من الجهد - أن نتبين بعض ملامحه المميزة، في الشاب الهاشمي الذي صحب عميه أبا طالب، وحزرة، إلى دار السيدة خديجة بنت خويلد، ليحتفل بزواجه منها في العام الخامس عشر قبل المبعث..

كان وقتئذ بشرا غير رسول، وإن يكن المهياً ليعث بالرسالة..
 كان شابا قرشيا هاشميا عريق الأصل طيب المنبت؛ أبوه «عبد الله
 ابن عبد المطلب بن هاشم» الذي وعت «مكة» قصة افتدائه من النحر
 وفاء بنذر أبيه^(١)، وهى قصة مثيرة أحييت ذكرى الذبيح الأول «إسماعيل
 ابن إبراهيم» جد العرب العدنانية.

وأمه «آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن قصي» أفضل
 امرأة في قريش نسبا وموضعا^(٢).

وقد أمضى أعوامه الأولى في بادية بنى سعد، فتركت هذه التربية
 البدوية طابعها الخاص في شخصيته، وأكسبته صحة الجسم والنفس،
 وصلابة الخلق وفصاحة اللسان^(٣) كما أكسبته حياته اليتيمة الكادحة من
 بعد ذلك، قوة احتمال وشعورا مبكرا بالمسئولية، وجاءت رحلة صباه مع
 عمه إلى الشام فوسعت من أفقه وزودته بعض خبرة بالدنيا والناس،
 فكان - في إبان شبابه - الرجل الناضج الجلد الصبور، تلمع في
 شخصيته آثار البادية، وفي سلوكه تهذيب الحياة المتحضرة حول الحرم:
 مشابة الحج، ومسكن قبيلة تتولى النقل التجارى بين الأطراف

(١) السيرة النبوية، رواية ابن هشام ١/١٦٠، ط الحلبي وانظر مبحث الفداء بتفصيل، في
 كتاب (أم النبي) ﷺ مع طبقات ابن سعد ١/١٥٠، وأعلام النبوة في (الشفاء).

(٢) السيرة ١/١٦٥، عيون الأثر ١/٢٤. مع فصل (فصاحة لسانه) في (الشفاء) للقاضي
 عياض.

(٣) لم يفتنى هنا أن العرب عموما قد احتفظوا بسلامة ألسنتهم، قبل اختلاطهم بالشعوب
 بعد الفتوح الإسلامية، ولكن يبقى للبادية مع هذا، نقاء عربيته نسبيا بالقياس إلى بيئة مكة التي
 عرفت الاختلاط قبل الإسلام، بحكم مركزها الدينى والتجارى: فإليها كان حج العرب، ومنها
 كان يجازر رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن والشام.

المتحضرة في الجزيرة، كما تلمح في عقله تجارب الحياة الجادة العاملة، وفي خلقه شمائل هاشمي قرشي، لم يفسده الفراغ والمال، ولم يُصِّبه الترفُ بآفات النعمة واللين.

هكذا كان «محمد» حين سمعت به السيدة خديجة، وبلغها ما يتحدث به القوم عن جده واستقامته، وصدقه وأمانته وعفته، فمهد هذا كله سبيله إلى قلبها الذي كانت قد أغلقتة دون الرجال جميعا، وفكرت فيه قبل أن تلقاه وتراه بعينيها: «شابا وسيما، معرب الملامح، أزهر اللون، ربعة في الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، ضخم الرأس، مبسوط الجبين، مرسل اللحية، عالى العنق، عريض الصدر، غليظ الكفين والقدمين، يتوج هامته شعر كث شديد السواد، وتشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك، وتتألق أسنانه المفلجة البيضاء إذا تكلم أو ابتسم»^(١).

«وكان يسرع الخطو ملقيا بجسمه إلى الأمام، وبحسن الإصغاء ملتفتا إلى محدثه بكل جسمه، لطيف المحضر، يضحك أحيانا حتى تبدو نواجذه فإذا غضب لم يخنه حلمه، بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين، من أثر الغضب»^(٢).

ولم تكن السيدة خديجة وقتئذٍ بالفتاة الغريرة، بل كانت السيدة الناضجة الحازمة، التي بلت الدنيا وعرفت الناس وتزوجت من قبل ذلك

(١) تاريخ الطبرى: ١٨٥/٣ - وانظر معه كتاب الفضائل من، صحيح مسلم: باب صفته ﷺ (١٨١٨/٤) وعيون الأثر ١/١٨٨.

(٢) من وصف الإمام على كرم الله وجهه للنبي عليه الصلاة والسلام: تاريخ الطبرى: ١٨٥/٣، ١٨٦ وانظر: صحيح مسلم، من كتاب فضائله ﷺ (١٨٠٤/٤ - ١٨١٢).

رجلين من سادة قریش، وعاملت رجالا آخرين كانوا يخرجون في ما لها إلى الشام، وإن في إعجاب مثلها «بمحمد» وحرصها على الزواج منه لدليلا على أنها وجدت في شخصيته الآسرة النبيلة، ما لم تجده في أى رجل ممن تزاحموا على بابها يطلبون يدها. ولسنا بحاجة إلى أن نقرر هنا أنها لم تر فيه يومئذ سوى الرجل المثالى، لا النبى المنتظر.

وقد عاشرت هذه السيدة الناضجة الأصلية خمسة عشر عاما قبل أن يبعث، وإنها لأعوام طويلة تكفى لأن تكشف لها عن جوهر هذا الزوج وتبدى من طبائعه وخصاله ما قد يخفى على غيرها من الناس. ثم لم تكذ تسمع حديثه العجيب عن الوحي الأول حتى قالت فى يقين:

«كلا والله ما يخزيك الله أبدا... إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق»^(١) الحديث.

تلك كانت شهادة الزوجة لزوجها بعد معاشرة طالت وامتدت، وإن فيها ما يجلو لنا ملامح من شخصيته ﷺ قبل أن يبعث نبيا رسولا. ومن وصف «على بن أبى طالب» كرم الله وجهه، لابن عمه الذى عاش معه طويلا فى بيت أبى طالب، ثم انتقل معه صبيا بعد أن غادر هذا البيت وتزوج السيدة خديجة، قال:

«... وهو أجود الناس كفا، وأجراً الناس صدرا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه...»^(٢).

(١) متفق عليه من حديث السيدة عائشة رضى الله عنها، عن بدء الوحي. مع السيرة

٢٥٣/١؛ وعيون الأثر ٨٣/١.

(٢) وانظر كتاب المناقب فى صحيح البخارى، وكتاب الفضائل فى صحيح مسلم.

ومعه، حديث لأم معبد الخزاعية «عاتكة بنت خالد»، قالت تصفه ﷺ، وقد رآته في هجرته قبل أن تعرفه:

«رأيت رجلا ظاهر الوضأة، أبلغ الوجه، حسن الخلق.. وسيم قسيم، في عينيه دمع، وفي أشفاره وطف، وفي عنقه سطع، وفي صوته صَحْل، وفي لحيته كثافة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاء من بعيد، وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق، فصل، لانهزر ولاهذر.. ربعة، لابائن من طول ولا تقتحمه عين من قصر.. له رفقاء يحفون به، إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره...»^(١).

والسيدة «خديجة» تنفرد من بين نساء النبي جميعا بأنها وحدها التي عرفته رجلا وزوجا قبل مبعثه ﷺ. ومن هنا كانت وقفنا عند حياتها الزوجية نلتبس فيها شخصية الرجل الزوج، فإذا تركناها إلى الأزواج الأخريات اللواتي جئن بيت النبي بعدها، شق علينا تمثل حياتهن هناك، فما من امرأة منهن دخلت حياة «محمد ﷺ» إلا رأت فيه الزوج والنبي معا.

والذي نظمئن إليه، هو أن الزوجة منهن كانت تأتى بيت الرسول ﷺ، معتزة بشرف الزواج من النبي المصطفى، ثم ما تكاد تدخل هذا البيت وتلقى من فيه من ضرائر يشاركها في رجلها، حتى ترى فيه - ﷺ - الزوج والنبي. ومن هنا كانت المغاضبة والمنافسة، والغيرة التي

(١) الاستيعاب ٤/١٩٥٩، وعيون الأثر ١/١٨٨، ٢/٣٢٣. ومعها من الباب الثاني من (الشفاء) للقاضى عياض، ١/٣٥ ط الحلبى ١٣٦٩هـ.

قد تحتد حتى تجاوز المدى، وما يكون شيء من هذا في حياة نساء يرين في زوجهن نبيا فحسب!

وحياة «محمد ﷺ» في بيته، تبدور رائعة في بشريتها، فقد كان يؤثر أن يعيش بين أزواجه رجلا ذا قلب وعاطفة ووجدان^(١)، ولم يحاول - إلا في حالات الضرورة القصوى - أن يفرض على نسائه شخصية النبي لا غير، ونحن اليوم نقرأ ما وعى التاريخ من مرويَّات عن تلك الحياة الزوجية، فيبهرنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجداني، ولا الجمود العاطفي، وما ذاك إلا لأنه ﷺ كان سَوَّى الفطرة، فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وحيوية، وينحِن عنها ظلال الركود والفتور والجفاف.

وتاريخ الإسلام يعترف لهؤلاء السيدات الكريَّمات، بأنهن كن دائما في حياة المصطفى ﷺ يصحبنه حين يخرج في مشاهدته ومغازيه، ويهينن له من ذلك كله ما يرضى بشريته، ويغذى قلبه، ويمتتع وجدانه، ويجدد نشاطه، فكان له من ذلك ما أعانه على حمل العبء الثقيل، واحتتمال ما لقي في سبيل رسالته الخالدة.

وقد عاش رسول الله ﷺ ما عاش، فتى القلب حتى بعد أن جاوز الستين، حتى الوجدان حتى يوم رحل عن هذه الأرض وأغمض عينيه في حجرٍ أحبَّ نسائه إليه، وأحظاهن عنده.



(١) في كتاب السمط الثمين للمحب الطبري، مبحث مبسوط عن رعايته ﷺ لزوجاته، وسمره معهن، وصبره عليهن: ص ٨: ١١.

فِي بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ، مَعَ الضَّرَائِرِ

بيته صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة لم يعرف الضرائر، إذ انفردت به السيدة خديجة رضى الله عنها، لم يتزوج عليها ولم تشاركها فيه، حتى توفيت، امرأة أخرى. وإنما كان البيت الذى جمعهن، فى دار الهجرة.

ولابد هنا من تعرض للمسألتين الكبيرتين فى حياة النبى ﷺ مع نسائه: تعدد الزوجات، وحياة الضرائر...

وقد قال المستشرقون فى أولاهما ما قالوا، ولم يروا فى هذا الجمع بين عدد من النساء لزوج واحد، سوى مظهر مادية مسرفة. وإنه لضلal أملاه التعصب الأحمق والهوى المضل، وانحراف عن المنهج العلمى الذى يأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة أضرت بالمرأة والأسرة والمجتمع، من حيث يدعى لها أنها منصفة.

وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعى أن نظام الزوجة الواحدة، يتبع وينفذ نصا وروحا، ومع هذا يأتى بعض أبنائه فينكرون فى جراءة، تعدد الزوجات، فى بيئة قد كان التعدد هو نظامها السائد التى لا تعرف سواه إلا فى حالات قليلة ولدواعٍ خاصة. ولم يكن هذا النظام اختياريا، وإنما قضت به طبيعة الزمان والمكان، فى مجتمع البنون فيه زينة الحياة، وفخر المرأة الإنجاب، وفخر الرجال الولد وعزة النفر.

وربما بدا لنا اليوم أن ذلك التعدد كان مظهرًا من مظاهر استعباد المرأة العربية ورقها المزعوم، وأنه قصد إلى إرضاء الرجال، ولكنه في الحق كثيرًا ما ألقى على الرجل عبئًا ثقیلاً مرهقًا، وأنقذ المرأة العربية من نظام أبشع من التعدد، وهو هذا الرق العصري الذي يعترف لزوجة واحدة بشرعية الزواج، ويدع لغيرها - ممن يعاشرهن الزوج في الحرام - الضياع والهوان والعار، ويرهق الإنسانية بمورد لا ينقطع من أولاد الحرام، المنبوذين اللقطاء.

والإسلام قيد التعدد شرعًا بأربع. ففارق الصحابة من زدن على أربع من نسائهم، ولهن أن يتزوجن من بعدهم.

وأكرم الله تعالى أمهات المؤمنين فأحلَّهن للنبي عليه الصلاة والسلام. قال عز وجل في سورة الأحزاب:

ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ تَنَزَّاعِيَهُنَّ وَلَا تَخْزَنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كَتُمْنَ

ذلك مع ما حرم الله على المؤمنين، من الزواج من أمهاتهم، نساء النبي ﷺ:

وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا

رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَكُونُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٧﴾

وأمر الله تعالى الرجال بالعدل بين أزواجهم، فيما هو من المعروف والمستطاع. مع تقدير الشرع لعجز الفطرة البشرية عن العدل المطلق

ولو حرصنا. وقد كان ﷺ أحرص الناس على العدل بين نسائه، قدوة للمسلمين ومعلما وإماما، إلا فيما لم يكن تملكه بشريته من المساواة بينهم في العاطفة والقلب، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«اللهم هذا قَسَمِي فيما أملك، فلا تُلْمَنِي فيما لا أملك».

وفي مسألة التعدد، جانب دقيق غفل عنه كثير من أنكروه، ذلك هو أن الرجال ليسوا سواء، وقد تؤثر أنثى - راضية - أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل، على أن يكون لها غيره كاملا.

وليس معنى هذا أن نساء النبي كن سعيدات بحياة الضرائر، ولا هو يقتضى أن تستريح إحداهن، إلى هذه المشاركة في الزوج، ولكن معناه على التحديد أن «محمداً» ﷺ، كان من ذلك النمط الفريد بين الرجال، تؤثر الزوجة أن يكون لها أى مكان فى بيته، على أن تكون لها مع غيره، مملكة مستقلة تنفرد بها دون مشاركة...

وليس من بين أزواجه - ﷺ - من دخلت بيته وفى حسابها أن تنفرد به، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية إلى حد يسهل عليها تصويره، لو ذكرنا أن «خولة بنت حكيم» اقترحت عليه أن يخطب عائشة بنت أبى بكر وسودة بنت زمعة فى وقت واحد، وأن «أم المؤمنين، ميمونة بنت الحارث» طمحت إلى الزواج منه، ﷺ وفى بيته عشر نساء: ثمانى أزواج واثنتان ملك يمينه، وأن عمر بن الخطاب عرض ابنته حفصة على أبى بكر وعنده «أم رومان» همة النبى ﷺ، وأن على بن أبى طالب هم بأن يتزوج على «فاطمة الزهراء» وأن أبا بكر وعمر، صهرى النبى ﷺ رغبا فى الزواج من «أم سلمة المخزومية، بنت أبى أمية زاد الركب» حين

مات زوجها، وفي بيت كل منها أكثر من زوجة^(١)...

ولو خُيرت نساء النبي ﷺ بين حياتهن تلك المشتركة في بيت واحد، مع زوج واحد، وحياة أخرى منفردة في غير ذلك البيت، لما رضين عن حياتهن بديلا...

في صحيح الحديث عن أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، هل لك في بنت أبي سفيان؟ - أختها - قال: «فأفعل ماذا؟» قلت: تنكح. قال: «أتحبين؟» قلت: لست لك بمخلية، وأحبُّ من شاركني فيك أختي. قال: «إنها لا تحل لي» قلت: بلغني أنك تخطب. قال: «ابنة أم سلمة؟» قلت: نعم. قال: «لو لم تكن ربيتي ما حلَّت لي، أرضعتني وأباها ثوبية، فلا تعرِّضن عليَّ بناتكن وأخواتكن».

وكنَّ مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة، تضنيهن الغيرة ويغيظهن ألا تنفرد كل منهن بقلب زوجها. وقد شهد البيت المحمدي من غيرة نساته، ما يخيل إلينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لشواغل نسوية لا تهدأ ولا تفتقر، وإن لم تر فيه الفطرة سوى أثرٍ لحوية هؤلاء السيدات، ومظهرٍ من مظاهر التنافس في حب زوجهن والرغبة في الاستئثار به...

فإن يكن، ﷺ عانى من ذلك كثيرا، فقد راض نفسه على احتماله، تقديرا للدوافع الطبيعية التي كانت تدفع إليه قسرا ودون اختيار، وحسبنا كلمته في زوجه السيدة «عائشة» حين لجأت بها غيرتها الجاحمة:

(١) يأتي بيان ذلك، مع مراجعته، في مواضعه من مباحث الكتاب.

«ويحبها، لو استطاعت ما فعلت!»

شاهدًا على سلامة الفطرة، وعمق الفهم لطبيعة حواء. وقد كانت نساؤه يعرفن هذا فيه، ويلذن به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما يجب لهن من مسالمة ووثام، ويدركن أن الغيرة مهما تجمع بهن، فمثل رسول الله من يعذر، ويقدر، ويرحم، دون أن يرى في ضعف البشرية إثما لا يغتفر، أو يجد في فطرة حواء ما يدعو إلى الغض والازدراء.

وسأقَى في مبحث «السيدة حفصة بنت عمر» رضى الله عنها، حديث أبيها حين سمع من امرأته أن نساء النبي ﷺ، يراجعنه حتى يظل يومه غضبان...

ذلك أن عمر والصحابة رضى الله عنهم، كانوا يرون في «محمد» النبي المصطفى، وأما نساؤه فكن يرين فيه الزوج أيضا. وهو ﷺ، راضٍ بهذا مقر له، غير ضجرٍ به ولا كاره...

ومن الناس من يشفقون من تناول ما كان يحدث بين نساء النبي ﷺ من خصام وخلاف، والحق أنه ﷺ ما ضاق بهذا إلا أن يجاوزن المدى، فيغضب، أو يزجر، أو يهجر، لعلهن يراعوين..

وفيا عدا تلك الحالات القليلة التي اضطر فيها إلى أخذهن بالشدة، لم يكره ﷺ أن يقف في ساعات فراغه من معركته الكبرى في سبيل الدين الحق، ليرقب تلك المعركة الصغيرة بين نسائه، يشعلها جبهن له وغيرتهن عليه، ولعله كان مما يرضى الرجل فيه أن يغار مثلهن على مثله، وأن تتنافس أزواجه في الظفر بحبه ورضاه إلى حد ينسين معه أحيانا

أنه ليس كغيره من الأزواج. وما حاول - ﷺ - أن يروضهن على قهر غريزة الأنثى فيهن، ولا كان بحيث يطيب له أن تمسخ فطرتهن فيبرأن من نوازع حواء وأهوائها، ويتجردن من الغيرة، والشوق، واللهفة، والرغبة في الاستئثار بالزوج الحبيب، وما كان أحلمه ﷺ، وأرق وجدانه، وألطف مزاجه، حين سمع قصة ائتبار نسائه بعروس له غُرْنَ من جاهلها، فأوصيها أن تستعِذ بالله حين يدخل عليها النبي ﷺ، استجلاباً لمحبتة ورضاه، ففعلت وسرحها ﷺ، قبل أن يدخل بها، وقال عن نسائه:

«إنهن صواحب يوسف، وإن كيدهن عظيم!»^(١).

وهذه صورة من حياة أزواجه رضى الله عنهن، أرجو أن يرى فيها القارئ شخصية الزوج المصطفى الذي آمنت به نساؤه رسولا، وأعجب به بطلا، وعاشرنه زوجا، وشاركن في حياته قائدا مجاهدا...



(١) بتفصيل، في الفصل الخاص بالسيدة عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها.